أبطالنا المنسيون
وأمجادنا المغمورة

بقلم الأستاذ سيد قطب

لكل أمة أبطالها التاريخيون فى كل نواحى البطولة ، تضربهم أمثالا لأبنائها الناشئين ، وتعرض حياتهم فى شتى الصور، فتارة تعرضها عرضا تاريخيا ، وتارة تعرضها عرضا تحليليا ، وتارة تحوك حول سيرتهم القصص، ومرة تصوغ حولهم الأساطير . وذلك حسب الطبقات التى تقدم لها الأمثال من حياة هؤلاء الأبطال .

فحين تخاطب الجماهير الساذجة والأطفال الصغار تختار طريق الأساطير والقصص لأنها الطريقة المحببة إلى الأطفال و إلى الجماهير ، والوسيلة المؤثرة فى نفوسهم ، الحبيبة إلى قلوبهم.

وحين تخاطب طلاب العلم ورجال البحث ، تختار طريق العرض التاريخى أو السير التحليلية ، لأنها الطريقة اللائقة بالعقول المفكرة والحقائق المدروسة .

وهى فى جميع الحالات تحيط هؤلاء الأبطال بهالة من الإعجاب والتقدير ، تجعل منهم قدوة محبوبة للأجيال ، ومُثُلا يتطلع كل فرد إلى تحقيقها فى الحياة .

هذا الإعجاب وهذا التقدير ، يثيران فى الأمم فضائلها الكامنة ، ويثيران فى الأفراد قواهم المذخورة ، فتبدو تلك الفضائل ، وتتنبه هذه القوى ، وتصبح عوامل بناء فى جسم الأمة ، وحوافز نهوض فى نفس الشعب على مدى الأجيال .

ولهذا تتخذ الأمم الحية كل وسيلة لإبراز هؤلاء الأبطال ، حتى لقد تتخذ اللعب وبعض أنواع الحلوى وسيلة للتعريف بأبطالها فى نفوس الأطفال الناشئين ، وكثيرا ما رأينا بعض أنواع " الشكولاته " والحلوى قد لفت بغلاف أو دست فيها بطاقة تحوى صورة أو جملة أو حكاية قصيرة عن بطل من الأبطال ، وكذلك اللعب وأدوات الكتابة وسواها .

وربما كانت هذه الوسيلة من أحب الوسائل إلى الأطفال ، ومن أنجعها فى تعريف الأبطال إليهم ، لأن هذا التعريف يحمل إليهم مع أحب الأشياء إلى نفوسهم ، ويطالعونه فى لحظات سرورهم ونشاطهم ، ويقدم إليهم فى صورة غير صورة الدرس الثقيل !

ومصر لا ينقصها الأبطال من جميع الأنواع فى تاريخها المديد فى العهود الفرعونية وفى عهود الإسلام على السواء ، وتاريخها الطويل المتصل الحلقات يتيح لها مجموعة ضخمة من الأبطال الذين يجب أن تعتز بتاريخهم ، وأن تقدس ذكراهم ، وأن تضرب بهم أمثالا عالية للناشئة من أبنائها ، وللجماهير من شعبها ، ولطلاب الدراسات والمعرفة فيها .

ولكن تلاميذنا فى المدارس وجماهيرنا فى المجتمع ، وطلابنا فى معاهد العلم ، لا يعرفون إلا القليل عن القليلين من هؤلاء الأبطال ، وإنهم ليعرفون عن أبطال الأمم الأوربية والأمريكية أضعاف ما يعلمون عن أبطال مصر خاصة والعالم الإسلامى على وجه العموم ، ودعك من أبطال الشرق كله إذا أردنا أن نرسم محيطا فى أوسع حدوده .

يعرف تلاميذنا عن نابليون أكثر مما يعرفون عن رمسيس ، ويعرفون عن غاريبالدى أكثر مما يعرفون عن أحمس ، ويعرفون عن مارتن لوثر أكثر مما يعرفون عن محمد عبده ، وهكذا وهكذا من الأسماء فى التاريخ القديم وفى التاريخ الحديث على السواء .

أما نهضتنا القومية الأخيرة فلا يعرفون عن أبطالها إلا القليل مشوها أو مبتورا فى معظم الأحيان . فهم لا يعرفون إلا التافه القليل عن عرابى أول زعيم قزر للشخصية المصرية احترامها ووجودها ، ولا عن مصطفى كامل أول زعيم وطنى نفخ فى روح الكرامة القومية والنخوة الوطنية ، ولا عن محمد بك فريد أول زعيم وطنى ضرب مثلا للتضحية الخارقة ولا عن سعد زغلول أول زعيم وطنى عمم الشعور الوطنى فى جميع النفوس .

فإذا تجاوزنا مصر إلى العالم الإسلامى لم نجد تلاميذنا وطلابنا يعلمون إلا النليل الخاف عن أبطال الاسلام . ومما لاشك فيه أنهم يعرفون عن نابليون بونابرت ، ونلسون ، وغاريبالدى وبيتهوفن ، وكولمبوس ، وأمثالهم أكثر مما يعرفون عن خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن الناصر ، والفارابى ، وابن بطوطه وأمثالهم . وهذا نقص عجيب فى تربيتنا القومية والإسلامية .

وإن أمة تعتمد فى إثارة النخوة وحفز الهمة على أبطال من غير جنسها ، لهى أمة فاشلة فى تربيتها الروحية ، وقد كانت تلتمس لها الأعذار لو أن تاريخها خلو من الأبطال ، فأما إذا كانت تجد منهم عشرات ومئات فى التاريخ القديم والتاريخ الجديد ، وفى محيطها القومى الخاص ، ومحيطها الدينى العام ، فإنها تكون حينئذ مقصرة أشنع التقصير .

* * *

وهنا يجب أن نسجل أوائل نهضة محمودة فى هذا الاتجاه ، فلقد توجه جماعة من أدبائنا وجهة جديدة إلى دراسة البطولة الشرقية والمصرية ، فصدرت كتب كاملة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وأبى بكر وعمر (رضى الله عنهما) ، وعن عبد الرحمن الداخل ، وعن غاندى ومصطفى كمال ، وعن عمر مكرم ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد .

فيجب أن تطرد هذه النهضة فتصدر دراسات وافية عن أمثال خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى وابن سينا والفارابى وجمال الدين الأفغانى وعرابى، كما يجب أن تصدر دراسات وافية عن توت عنخ أمون وثورته الدينية ، وعن بتاءور الشاعر المصرى القديم، وعن أحمس البطل المصرى الذى طرد الهكسوس ، وتحتمس مؤسس الأمبراطورية ورمسيس المحارب العظيم . . . الخ

على أن الدراسات العلمية والجامعية ليست هى كل مايطلب فى هذا الاتجاه، فقراء هذه الدراسات محدودون، وهم كبار السن على كل حال؛ وإنه ليعنينا قبل كل شىء أن نعرف هؤلاء الأبطال إلى أطفالنا الصغار وإلى جماهيرنا الغفيرة ، وهؤلاء لا يقرءون الدراسات العلمية ، ولا يصبرون عليها، فيجب أن نقدم لهم هؤلاء الأبطال فى صور أخرى جميلة وجذابة ومحبوبة .

ومما ييسر لنا هذه المهمة أن جميع الشعوب الحية قد سبقتنا إليها ، ومهدت الطريق أمامنا ، فليس علينا إلا أن نقتبس هذه الوسائل المهيأة المدروسة . تلك الوسائل هى القصة والأسطورة والصورة الملونة الجذابة ، والحكاية القصيرة ، والنادرة السريعة ، نضعها فى كل مكان تصل إليه أيدى الصغار وأيدى الجماهير .

فكتب المطالعة وكتب المحفوظات وكتب التاريخ ، والمتاحف المدرسية والمتاحف العامة ، والسينما والمسرح والأغانى ، واللعب والأدوات المدرسية وصناديق الحلوى ، وعلب الشيكولاته وسواها مما يصنع داخل البلاد ، يجب أن تكون جميعها وسائل لتعريف هؤلاء الأبطال إلى الجميع .

وعلى عاتق وزارة المعارف تقع التبعة الأولى بما تملك من الوسائل الكثيرة فى المدرسة ودور الثقافة العامة ، ولكن هذا عمل قومى يجب أن تقوم عليه هيئات أخرى بجانب وزارة المعارف ، فى مقدمتها هيئة الصحافة وهيئة الأدباء ودور النشر والهيئات الاجتماعية على اختلاف ميادين نشاطها فى أنحاء البلاد .

لقد اشتركت فى وضع كتاب مدرسى لمحفوظات الأطفال مع جماعة من الأساتذة الأدباء ، فكان أول ما اتجهت إليه أنظارنا أن نضمن كتابنا قصصا عن سير بعض الأبطال ، واخترنا لذلك شخصيتين إحداهما مصرية وهى شخصية رمسيس ، وثانيتهما عربية وهى شخصية صقر قريش، وحاولنا أن نرسمهما فى صورة جذابة مستعينين مع الحقائق التاريخية ببعض الأساطير ، ويجب أن تطرد هذه الروح فى كل ما يقدم للأطفال .

والأسطورة والقصة فى هذه السن هما أقرب الطرق إلى النفوس ، أما حين تتقدم السن وتتسع المعرفة فتصبح السيرة والتاريخ هما الوسيلتان المناسبتان لعرض حياة الأبطال .

وعلى هذا النحو ينبغى أن تتجه سياسة التعليم وسياسة التربية القومية ، فلا يكفى أن يجىء هـذا الهدف عرضا و بلا قصد أو لملء الفراغ فى الكتب والمناهج ، بل يجب أن تختـار مجموعات من أبطالنـا لكل فرقة من الفرق ، وتعرض بالطريقة المناسبة لعقلية التلاميذ فى كل مرحلة وأن تتعاون المواد المدرسية لتأدية هذا الغرض ، فلا تكون حصة التاريخ وحدها هى المعرض الوحيد .

إن دروس التاريخ والتربية الوطنية والمطالعة والمحفوظات والإملاء والإنشاء والنشاط المدرسى ، تصلح جميعا للمساهمة فى هذا الفرض الهام من أغراض التربية الشخصية والقومية التى تهتم بها جميع البلاد المتحضرة .

ويحسن أن ننبه هنا إلى أن التعريف بهؤلاء الأبطال على النسق المتبع فى دروس التاريخ ودروس تاريخ الأدب العربى أو تاريخ التربية ، قد يأتى بعكس المقصود منه ، وقد يكره هؤلاء الأبطال إلى نفوس الصغار و ينفر منهم نفوس الجماهير إذا فكرنا أن نقدم لهم دراسة عن هذه الشخصيات فى إذاعات الراديو مثلا على النسق المدرسى .

فعيب هذه الطريقة أنها تفقـد الموضوع الحياة والجاذبية وتقدمه نتفـا مقتضبة ، أو حوادث جافة ، أو سردا مملا لا يصبر عليه القارئون والمستمعون .

فالتشويق هو العنصر الأول الذى يجب أن يتوافر لطريقة العرض والتعريف . وإن صورة ملونة تحتها بعض السطور المشوقة عن بطل من الأبطال ، أو نادرة لطيفة ، أو واقعة مثيرة لخير ألف مرة من ذلك السرد الجاف لمولده ووفاته وأعماله !

و إن أسطورة خيالية ، أو قصة فنية ، تذاع عن بطل من الأبطال ، لأجدى ألف مرة من دراسة تحليلية تلقى بالراديو عن حياته وأعماله .

و إن تمثيلية أدبية تصور حياة بطل ووقائعها لأفضل ألف مرة من كتاب يضم تاريخه بالتفصيل بأسلوب لا يستفيد منه إلا الخواص .

ولسنا نحرم بهذا أن تصدر دراسات علمية تحليلية لهؤلاء الأبطال ، فهذه حلقة لابد منها لتكملة السلسلة ، إنا نريد أن تتخذ أشد الوسائل إغراء وجاذبية فى هذا الطور الأول ، بعد الإهمال الشديد الذى أهملناه لأبطالنا القدامى والمحدثين حتى نسيهم الناس ولم يعودوا يتطلعون إلى معرفة شىء عنهم لأنهم أموات فى نفوسهم ، بعيدون عن قلوبهم .

فلنجتهد أولا فى إيقاظ هؤلاء الأبطال فى نفوس الناشئة ونفوس الجماهير ، فإذا بعثوا من جديد بالوسائل المغرية المشوقة ، عدنا ندرس حياتهم دراسة تحليلية ونقدمها للخواص وهم عدد قليل فى جميع الشعوب .

* * *

فإذا تجاوزنا دائرة الأشخاص إلى دائرة الوقائع وجدنا أننا نهمل فى إبراز الأمجاد المصرية والإسلامية والشرقية كما نهمل فى إبراز الأبطال سواء بسواء .

فالتاريخ المصرى الخاص ، والتاريخ الإسلامى والشرقى العام حافل بالأمجاد التاريخية ، ولكننا لانجد لها إلا ظلا مشوها فى رءوسنا ، بينما نذكر بوضوح الأمجاد الأوروبية والأمريكية قديمها وحديثها على السواء .

ولقد وعى التاريخ لمصر العريقة أمجادا لا نظير لها بين جميع شعوب الأرض ، ولكن التاريخ المدرسى المشوه المبتور يصور لنا مصر فى صورة الأمة المستعبدة على مدى الأجيال ، ويلم بعصور استقلالها وعصور أمبراطوريتها قديما وحديثا مر العجالى المسرعين !

فأين أمجاد خوفو ورمسيس وتحتمس ، وأين الأمجاد العلمية والفنية التى يذخر بها التاريخ القديم ، إنها جميعا تذكر فى بضعة سطور مبتورة فى أسلوب جاف ، ولا تعقد بينها وبين المصرى المعاصر صلة من الصلات ، ولا تبث فيها الحياة التى تبعثها واضحة متحركة فى نفوس المصريين سلالة أصحاب هذه الأمجاد التى وعاها التاريخ فنسيها المصريون !

والأمجاد الإسلامية والشرقية عامة شأنها فى الإهمال شأن الأمجاد المصرية البحتة ، وإذا ذكرت فانما تذكر على سبيل السرد والإحصاء لا على سبيل الدراسة والإحياء .

ولن تبعث هذه الأمجاد حية نابضة إلا يوم تدخل النفوس من نافذة الأدب والفن ، فتحيا فى الأغانى والأناشيد والقصص والتمثيليات والأساطير ، ويوم يتناولها كذلك مؤرخون أدباء يحيلون مادة التاريخ الجافة قطعة نابضة من الحياة .

وهذا العمل الأخير أعسر وأندر لأن ملكة التاريخ الأدبى نادرة فى الشعوب ، ولكن الملكات الأدبية البحتة كثيرة وشائعة ، وفى الوسع توجيهها هذه الوجهة دون أن تفقد قيمتها الفنية .

ولن تعوز الفنان المصرى المادة الخامة التى يصوغ منها الأمجاد المصرية والإسلامية والشرقية حيثما امتد بصره رأى هذه الأمجاد على مرأى العين ، والثورة المصرية الأخيرة وحدها لا تزال منجما غنيا لم يستخرج منه إلا القليل .

كل ما ينقصنا هو الاتجاه ، وما أحوجنا إلى هذا الاتجاه ، ونحن نبنى أمجادنا الحديثة على أساس من أمجادنا القديمة ، ونحن فى مطلع فجر جديد بعد نوم مديد .

سيد قطب